الدراسات النحوية في الجزائر من خلال كتاب تاريخ الجزائر الثقافي لأبي القاسم سعد الله

د/ فرعون بخالد

جامعة سيدي بلعباس

يجد المتأمل في تاريخ الدراسات اللغوية بالجزائر أن النحو العربي جلب اهتمام الدارسين دونما التفاتات إلى البلاغة و العروض و كذا علم الدلالة، فالبرامج المسطرة لطلبة العلم بعد حفظ القرآن الكريم تدريس المتون النحوية كألفية ابن مالك، الأجرومية لامية الأفعال.

و كانت الزوايا المنتشرة في ربوع الوطن تستقبل طلبة العلم و توفر لهم كل أسباب الإقامة و الإطعام معتمدة في ذلك على جهد المحسنين من تجار و فلاحين و عادت بذلك هذه الزوايا منارة علم و قبلة للراغبين في التحصيل، و قد تخرج منها علماء معروفون و نحاة متميزون ألفوا كما سنرى لها كتبا في علوم القرآن و التفسير و الفقه ثم النحو، فالزوايا قديما من زاوية و هي مكان يجتمع فيه الطلبة لأخذ العلم لا كما يراها الناس في عصرنا حيث أفرغت من مهامها و عادت مسرحا يلتقي فيه المريدون للابتهال و ترديد الأوراد و إقامة الصلوات.

و من النحاة المشهورين الذين أقاموا اللبنات الأولى لمدرسة نحوية مستقلة بمناهجها عن المدارس القديمة كمدرسة البصرة و الكوفة و بغداد، البجائي الذي اطلع على المصادر النحوية و المتون كألفية ابن مالك التي انتشر حفظها و تدريسها في مشارق الأرض و مغاربها و أضحت متنا يفرض في الأزهر الشريف و حلقات التدريس في سوريا و الحجاز، قال الشيخ الدمامني: " إن ألفية ابن مالك

لم يخل منها مجلس علم في مصر"[1] فرغم أن البجائي كان مدرسا بمصر إلا أنه اعتمد الأجرومية كبرنامج و منهاج و التي رأى فيها قائلا "أما بعد فهذه تعليقة يستعان بها إن شاء الله تعالى على حل ألفاظ الأجرومية تعين الراغب و تنبه الطالب، فللمبتدئ مثلي تبصرة و للطلاب تذكرة"[2].

و إن كان البجائي قد وضع الأجرومية دليلا للمبتدئين فقد شرح شواهد قواعد الصغرى في النحو لابن هشام الأنصاري ذكر في تبرير هذا الشرح أن لا أحد تناولها فعلق عليها "بشرح يرفع عنها حجابها و يكشف تقابلها و يذلل صعابها و يزيل عنها إغرابها، متجنبا الإطالة خشيت السآمة و الملالة"[3].

ثم عمد إلى كتاب شذور الذهب في معرفة كلام العرب شرحا و تعليقا و مما قال في مقدمته "إن كتاب شذور الذهب في معرفة كلام العرب من أنفس ما ألف في النحو إلا أن شواهده لم أر من تعرض لشرحها فأردت أن أجعل عليها شرحا يذلل صعابها"[4] معتمدا في ذلك على بعض الشروح أهمها شرح العيني على شواهد الكتب الأربعة، و شرح شواهد المغني للسيوطي.

ظهر بعد تصفحنا لشروح الأجرومية أن النحاة الجزائريين كونوا مدرسة تضاهي المدارس النحوية القديمة و أهم هؤلاء النحاة ظهورا بعد الشيخ البجائي:

- عبد الكريم الفكون (ت 1073) له شرح الدليل على الأجرومية.
- البوني (ت 1139) له نظم الأجرومية في تسعين بيتا.
- أحمد طيب الزواوي (ت 1251) له منية الطلبة.
- أحمد يوسف أطفيش (ت 1435) له شرح الأجرومية[5]

هؤلاء النحاة و الذين لم نذكرهم كونوا مدرسة نحوية مستقلة اعتمدت على شروح الأجرومية متنا، انفردت بمنهج يعتمد على الشرح العام دونما الوقوف على

الجزئيات موافقة صاحب المتن مع إضافة بعض المسائل من خلال الحواشي التي تضاف إلى الشرح.

و يعتبر البوني بعد البجائي استمرارا لهذه المدرسة لما له من دور رائد في تخريج كبار النحاة الجزائريين ذكر عبد الكريم الفكون "إنه كان حديث العهد و صغير السن عندما بدأ تعلم النحو و الصرف من خلال أرجوزة المكودي"[6].

كما ألف كتابا أسماه "فتح المبين في تراجم بعض مشاهير النحاة و اللغويين" و من اللذين ترجم لهم ابن خالويه و سرد في مؤلفة بعض الأخبار الأدبية و اللغوية التي يسميها بالفوائد، ذكر أن سيف الدولة قد طلب من العلماء ذكر الأسماء الممدودة و جموعها مقصورة، فذكر ابن خالويه صحراء عذراء، فنظم البوني هذه الأسماء في قوله:

صَحْرَاءُ عَذْرَاءُ وَ لَفَّاءُ وَ حَبْرَاءُ مَمْدُودَةٌ كُلهَّا و زَيْدٌ سَبْتَاءُ

وَ جَمْعُهَا جَاءَ مَقْصُورًا فَكُنْ فَطِنًا وَ احْفَظ فَدَيْتُكَ مَا بِالحِفْظِ بَتْسَاءُ [7]

و من تلامذته الفكون الذي ألف عدة كتب في النحو و الصرف أخبر العياشي أن الفكون افتتح شرحه لأرجوزة المكودي بهذه العبارة: "الحمد لله الذي أجرى تصاريف المقادير بواسطة أمثلة الأفعال، و أوضح افتقارها إليه بتغيير حالاتها من حركة و صحة و اعتلال"[8].

و للفكون شرح على شواهد الشريف على الأجرومية و من ثم كان مدرسا مؤلفا ماهرا في علم النحو و الصرف. و قد عاصر الفكون يحي الشاوي الذي أخبر عنه العياشي "إنه كان مواظبا على حضور حلقات التدريس و الأخذ عن علماء عصره"[9]

ألف الشاوي كتابا في أصول النحو جعله على أسلوب الاقتراح للسوطي، و نظم لامية في إعراب اسم الجلالة و له شرح على التسهيل لابن مالك. و ممن

وضعوا حاشية على شرح الخلاصة سعيد قدورة الذي اشتهر كمدرس و ألف حاشية سماها "رقم الأيادي على تصنيف المرادي"[10].

فشُرَّاح الأجرومية[11] انتصروا لابن أجروم و عكفوا على شرح متنه و التعليق عليه و اعتماده برنامجا يدرس للطلبة في المغرب العربي، بعدما كانت الألفية قد انتشر صيتها في المشرق، و بذلك يكون النحاة الجزائريون قد أخرجوا الأجرومية بعدما كانت مغمورة إلى الظهور و العلن.

الهوامش:

1 – ينظر: أبو القاسم سعد الله – تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، دار البصائر للنشر و التوزيع – الجزائر ط6، 2009، ص .165.

2 – المرجع نفسه ص .166

3 – عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف و الترجمة و النشر، ط1، 1980، ص .33

4 – ابن أجروم متن الأجرومية، مطبعة مصطفى علي صبيح و أولاده، القاهرة.

5 – مختار بوعناني الدراسة الصرفية عند المازني و ابن مالك مقارنة في المنهج (مخطوط دكتوراه) ص .52

6 – شرح الأجرومية (الشرح الصغير) ص .2

7- أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي ص 163 النص مأخوذ من شرح البجائي و هو في 18 ورقة المكتبة الوطنية بتونس رقم 1598 ص 164

8- المرجع نفسه، ص .164

9 – المرجع نفسه، ص .165

10 - مختار بوعناني الدراسة الصرفية عند المازني و ابن مالك مقارنة في المنهج ص .53

11 - شرح الأجرومية (الشرح الصغير) ص 3.

رصد بيبلوغرافي لمسيرة الأستاذ أبو القاسم سعد الله

د. بوسليم صالح
جامعة غرداية

يُعد البحث في التراجم والشخصيات من أهم الموضوعات التي تتطلب الدقة والموضوعية في المعطيات المعرفية والمفهوماتية لطبيعة أعمال ومسيرة هذه الشخصية أو تلك، لاسيما مبادؤهم وشخصياتهم ومحطات مواقفهم، التي تعتبر من أهم المؤثرات في الحركة التاريخية في أي مجتمع من المجتمعات.

إن دراسة الأعلام وتتبع جهودهم لها أهمية كبرى في الحفاظ على رصيدهم النضالي وأعمالهم الدؤوبة لنصرة الحق ورد الظلم، لكي تقتفي الاجيال اللاحقة آثارهم، ولكي لا تضيع الأعمال التي ناضل وكد من أجلها أولئك العظماء من أمتنا الذين يعتبرون المنارات المضيئة ،التي يحاول البعض إطفاءها.و من تلك الشخصيات المضيئة التي نشطت في صمت؛ بعيدا عن الأضواء؛ الشيخ أبو القاسم سعد الله رحمه الله.

_ ميلاده:

ولد الأستاذ أبو القاسم سعد الله بقرية البدوع بضواحي مدينة قمار بولاية وادي سوف في صائفة سنة 1930م أو1931م. وقد ابتدأت المسيرة العلمية للعلامة أبو القاسم سعد الله في سن الخامسة، حيث دخل جامع البدوع بمسقط رأسه أين حفظ القرآن الكريم وتعلم الكتابة وحَفظ بعض المتون في الفقه والحديث، ثم تفرغ بجامع الزيتونة بتونس سنة 1947م للتفقه في مختلف العلوم الدينية وعلوم اللغة وآدابها فاغترف من مناهل العلم والمعرفة حتى حصل على شهادتي الأهلية والتحصيل من، ليُعين بعد ذلك من طرف جمعية العلماء

المسلمين الجزائريين في وظيفة معلم بالمدرسة العربية بالحراش في السنة الدراسية1955/1954م، فاستأنس بزميله وابن منطقته الشيخ الأزهاري.

التدرج الجامعي:

- استفاد من منحة دراسية إلى مصر حيث وجهته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ليلتحق بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة وتخرج منها سنة 1959م بشهادة الليسانس في الأدب العربي والعلوم الاسلامية، وبعد عام حصل على سنة أولى ماجستير في النقد الأدبي. وقد كتب العلامة أبو القاسم سعد الله أطروحته للماجيستير سنة 1960م عن الشاعر محمد العيد آل خليفة وكانت بعنوان : " **محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث**"، وكان للمقادير مشيئتها ودورها فلم يناقش رسالته وتوجَّهَ إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعد حصوله على منحة للدراسة من جهة التحرير الوطني.

- استفاد من منحة دراسية مرة ثانية باتجاه الولايات المتحدة الأمريكية، حيث واصل دراسته بجامعة منيسوتا (MINNESOTA) ، وفي قسم التاريخ بنفس الجامعة تحصّل على الماجيستير سنة 1962م ومنها نال أيضا على شهادة الدكتوراه في التاريخ الأوروبي الحديث والعلوم السياسية سنة 1965م . وعاد إلى جامعة الجزائر سنة 1967م، أين بدأ مساره الأكاديمي بين زملائه وطلبته وتبوَّأَ عدة مناصب ومسؤوليات في الجامعة الجزائرية ،وبقي بها إلى أن أخرج إلى التقاعد في منتصف التسعينيات من القرن الماضي. وكان أستاذا زائرا في العديد من الجامعات العربية والأجنبية، وساهم في إصلاح التعليم العالي بتجربته وخبرته، وترأس لجانا علمية مختلفة كما كان عضوا في بعضها، كما أسندت له مهام علمية أخرى مثّل فيها الجزائر أحسن تمثيل، وعن جهوده الأكاديمية التي تُذكرُ على الدهر فَتَشْكَرُ، فقد خصّه معهد المناهج بالجزائر العاصمة؛ بنشرية حول :

السيرة الذاتية والعلمية تحت عنوان " أ. د . أبو القاسم سعد الله شيخ المؤرخين وقدوة الباحثين "، وذلك بمناسبة تكريمه واستحقاقه لـ " وسام العالم الجزائري" والذي سُلّم له من طرف المعهد المذكور في شهر ربيع الثاني من عام 1428هـ / ماي 2007 م . ويعرف عنه إلى جانب إتقانه اللغة العربية، فهو يتقن أيضا اللغة الفرنسية، والإنجليزية، كما دارس اللغة الفارسية و الألمانية.

التخصص:

* تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر.
* تاريخ المغرب العربي الحديث والمعاصر.
* تاريخ النهضة الإسلامية الحديثة.
* الدولة العثمانية منذ 1300م.

المقررات التي درّسها بالجامعة:

- انتشار الإسلام إلى الوقت الحاضر.
- تاريخ الأوقاف والنظم المتصلة بها.
- تاريخ العالم المعاصر.
- التاريخ المعاصر للعالم الإسلامي (من القرن 16-19م)
- تاريخ أوروبا الحديث.
- تاريخ أروبا في عصر النهضة.
- التطور الفكري في المجتمعات الإسلامية الحديثة(لطلبة الدراسات العليا).
- تطور ملكية الأرض والضرائب في العالم الإسلامي (لطلبة الدراسات العليا).
- التغلغل الأوروبي في العالم الإسلامي الحديث 1800-1920م.
- التنظيمات الأهلية والحركات العامة المؤثرة في المجتمعات الإسلامية.
- الحج والرحلة في العالم الإسلامي.

- الحركات الاستقلالية والتحرر الوطني في العالم الإسلامي الحديث.
- الحركة الإصلاحية في الدول الإسلامية الحديثة (لطلبة الدراسات العليا).
- دراسات نقدية للمصادر الأصلية والوثائق الحديثة للعالم الإسلامي (لطلبة الدراسات العليا).
- الدول الإسلامية الحديثة (القرون 16-19م).
- العلاقات الخارجية للعالم الإسلامي إلى القرن 18م.
- الفرق و المذاهب الإسلامية.
- المؤسسة العسكرية في التاريخ الإسلامي (لطلبة الدراسات العليا).
- مدخل إلى التاريخ الإسلامي.
- ملكية الأرض والاستثمار في العصر الإسلامي (القسم الثاني)، من القرن 13 إلى 20م.
- مناهج البحث الحديث في التاريخ (لطلبة الدراسات العليا).
- النهضة الإسلامية الحديثة، 1800-1924م.

تقلد العديد من الوظائف العلمية والإدارية:

- شغل أستاذ التاريخ بجامعة آل البيت بالمملكة الأردنية الهاشمية، ما بين سنتي 1996 -2002م.
- أستاذ التاريخ جامعة الجزائر منذ 1971م. وما أقعده المرض عن الكتابة والتأليف و التعاون مع هذه الجامعة وغيرها .
- كما شغل أستاذا مشاركا في التاريخ، جامعة الجزائر 1967-1971م.
- عمل أستاذا مساعدا في التاريخ، جامعة ويسكنسن أوكلير (أمريكا) 1960-1976م. وهذا قبل أن يلتحق بجامعة الجزائر.
- شغل منصب وكيل كلية الآداب، بجامعة الجزائر، ما بين سنتي 1968-1972م.

- عُين رئيسا لقسم التاريخ، بكلية الآداب، جامعة الجزائر، ما بين سنتي 1969-1971م.

أستاذ زائر:

– جامعة منيسوتا، أمريكا قسم التاريخ، 1994-1996، 2001م.

- جامعة ميشيقان (أمريكا) 1987-1988م، دورات متوالية سنوية.

– جامعة الملك عبد العزيز (السعودية) قسم التاريخ، 1985م.

– جامعة دمشق (سورية) 1977م.

– جامعة عين شمس (مصر) 1976م.

– معهد البحوث والدراسات العربية (مصر) 1970، 1975، 1989م.

تكريمات : شهادات تقدير وتشريف:

– منح (وسام المقاوم) على المساهمة النشطة في الثورة الجزائرية، الجزائر 1984م.

– كرمه رئيس الجمهورية بمناسبة الذكرى الخامسة و العشرين لاستقلال الجزائر1984 م.

– ضيف الشرف عند توزيع جوائز الدولة التقديرية، السعودية، الرياض، 1984م.

– الرئيس الشرفي لاتحاد الكتاب الجزائريين منذ 1989م.

– منح جائزة الإمام ابن باديس من قبل مركز دراسات المستقبل الإسلامي الموجودة في لندن 1991م.

– منحة فولبرايت (Fulbright) كأستاذ باحث، جامعة منيسوتا، 1993-1994م.

– كرمه نخبة من الأساتذة والأدباء بمناسبة صدور الطبعة الأولى من كتاب الحركة الوطنية الجزائرية ، في مدرج جامعة الجزائر، 04 يوليو، 1969م.

– كرمه أدباء وهران، ربيع1987م.

– ضيف شرف في احتفال الجنادرية الثقافي (السعودية) سنة 1992م.

– دراسات وشهادات: كتاب تكريم وتقدير مهدى إلى الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله، تحرير: أ.د الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، بيروت 2000م (ساهمت فيه مجموعة من الأساتذة)

المشاركة العلمية في المؤتمرات الوطنية والدولية :

- تاريخ وحضارة المغرب العرب، تونس 1974م.
- مصادر تاريخ الجزيرة العربية الرياض 1977م.
- الحياة لاجتماعية والثقافية للدولة العثمانية تونس1986.
- الذكرى الخمسينية لإنشاء نجم إفريقية الشمالية باريس 1987م.
- تاريخ الرياضيات العربية الجزائر 1988م.
- كتاب المغرب العربي طرابلس 1968م.
- اتحاد الكتاب العرب دمشق 1971م.
- اتحاد الكتاب العرب تونس 1973م، 1990م.
- التراث الفلسطيني القاهرة 1989م.
- مؤتمرات المستشرقين الأمريكيين في سان فرنسيسكو 1966، ميشيغان 1978م كارولينا الشمالية1993م، أريزونا 1994م.
- المؤتمر الثالث لتاريخ الرياضيات العربية الجزائر 1990م.
- مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة 1989م.
- ندوة أسبوع المغرب العربي، تنظيم رابطة الطلاب الإسلاميين بفرنسا باريس 28 أكتوبر 1991م.
- كيف تعلم الفرنسيون اللغة العربية في الجزائر، محاضرة في سيمنار قسم

التاريخ، جامعة آل البيت (الأردن) خريف 1997م.
- الملتقى الثاني للثورة الجزائرية باتنة 11 – 14 نوفمبر1990م.
- ندوة خير الدين باشا التونسي، تونس 1995م.
- المؤتمر الأول لكتابة تاريخ الثورة الجزائرية، الجزائر 1981م.
- ملتقى الحركة الثقافية والفنية والإبداعية في الجزائر، تنظيم جامعة آل البيت والسفارة الجزائرية بعمان مايو 2001م.
- الملتقى العماني الأول بإشراف جامعة آل البيت والسفارة العمانية في عمان سنة 2000م.
- ملتقى الدولة العثمانية، بدايات ونهايات، تنظيم جامعة آل البيت، سنة 1999م.
- أشغال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب العربي وحضارته تونس 1974م
- الندوة العالمية الأولى لمصادر تاريخ الجزيرة العربية ,الرياض 1977م
- الملتقى الثقافي الثاني عن أدب السيرة والمذكرات في الأردن جامعة آل البيت مايو1998م
- ندوة عن الثورة في العالم الثالث، جامعة ويسكنسن، أوكلير، أمريكا، 1967
- الملتقى العلمي حول الحركة الثقافية والفنية والإبداعية في اليمن إشراف جامعة آل البيت والسفارة اليمنية في عمان ربيع 2000م.

_ **المشاركة العلمية بالمحاضرات:**

-محاضرة في جامعة الجزائر بمناسبة ذكرى الأمير عبد القادر، 04 مايو 1983م.
- محاضرة عن إشكالية الكتابة التاريخية بجامعة الجزائر في 1990/04/02م.
- محاضرة عن جمعية العلماء والسياسة في المركز الثقافي الإسلامي بالعاصمة 24يناير1990م.

- محاضرة في جامعة اليرموك بدعوة من قسم التاريخ عن الاستعمار والاندماج في الجزائر شتاء 1996م.

- محاضرة في أيام دراسية قسم التاريخ، جامعة آل البيت، نساء أوروبيات في مواجهة مجتمع عربي، خريف 1996م.

-محاضرة عن العنصرية عند افتتاح السنة الدراسية الجامعية بالجزائر بدعوة من رئاسة الجامعة في 10/05/ 1986م.

- محاضرة عن الأديب الشهيد أحمد رضا حوحو، بدعوة من اللجنة الثقافية لاتحاد طلبة المغرب العربي في القاهرة، في نادي طلبة المغرب العربي مارس 1960م.

- محاضرتان في مسقط (عمان) خلال رمضان 1422هـ/2001م، بدعوة من وزارة الأوقاف العمانية.

- محاضرة عن الثورة الجزائرية في ذكراها الثالثة، في نادي طلبة المغرب العربي بالقاهرة، نوفمبر 1957م.

- محاضرة في جامعة الجزائر عن قيمة التاريخ، بدعوة من قسم الفلسفة 29/12/1987م.

- ملتقى نجم شمال إفريقيا، بدعوة من المركز الثقافي الجزائري بباريس فبراير 1987م.

- محاضرة عن نظرة الأمريكيين للتاريخ الجزائري، جامعة الجزائر ربيع 1987م.

- محاضرة عن تاريخ العلوم في الجزائر خلال العهد العثماني، المدرسة الوطنية العليا للأساتذة ديسمبر 1986م

- محاضرة عن حياة الرسول(صلى الله عليه وسلم) في سنمار معهد لوثر مينيابلوس (أمريكا)1996م.

- محاضرة عن الجزائر في منتدى جامعة هاملين مينيابولس (أمريكا) 1994م.
- محاضرة في جامعة الجزائر عن النيقريتود أو الزنوجية 1968م.
- محاضرة عن معنى التاريخ في جامعة الجزائر 29/12/1987م.
- محاضرة عن الجزائر والقومية العربية جامعة الجزائر 1966م.

النشاط الأكاديمي:

- وبعد الاستقلال لم يركن مترجمنا إلى الراحة والركود بل واصل نضاله الذي كان يؤمن به ،مجسدا قول الرسول صلى الله عليه وسلم بعد الانتصار في غزوة بدر:رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر، والجهاد الأكبر بالنسبة لمترجمنا هي مرحلة بناء الدولة الوطنية على مبادئ الإسلام والعروبة المعاصرة.
- محرر المجلد الخامس من الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية، ALECSO منذ 1998م.
- كتابة مداخل عديدة في موسوعة العلماء العرب والمسلمين، المنظمة العربية ALECSO منذ 1998م.
- عضو هيئة تحرير مجلة (المنار) المحكمة، جامعة آل البيت، الأردن منذ 1997م.
- رئيس لجنة العلوم الإنسانية لمعادلة الشهادات الأجنبية الجزائر 1990_1993م.
-رئيس لجنة ترقية الأساتذة المشاركين إلى رتبة أستاذ ، في مجال العلوم الاجتماعية و الإنسانية الجزائر 1990_1993م.
- الإشراف على مجموعة من الرسائل الدكتوراه و الماجستير والمشاركة في مناقشتها في الجزائر والأردن وأمريكا والسعودية.
- عضو معتمد في الإشراف على الأطروحات من الجامعة الإسلامية العالمية -لندن- .
- عضو مجمع اللغة العربية القاهرة منذ 1989م.

- عضو مجمع للغة العربية دمشق منذ1990م.
- رئيس المجلس العلمي لدائرة التاريخ ثم معهد التاريخ بالجزائر سنوات 1972-1980-1984-1986-1993م.
- عضو المجلس الوطني للبحث العلمي الجزائر 1992م.
- عضو مجلس البحث العلمي لجامعة آل البيت (الأردن) منذ 1998م.
- تنشيط ندوة الأساتذة الثقافية بجامعة الجزائر.1967-1968م.
- إدارة ندوة حول التعريب في الجزائر اشتراك فيها مجموعة من الأساتذة في منهل السعودية أوت 1990م.

وبعد الاستقلال لم يركن مؤرخ الأجيال إلى الراحة والركود، بل واصل نضاله الذي كان يؤمن به، مجسدا قول الرسول صلى الله عليه وسلم بعد الانتصار في غزوة بدر:رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر. والجهاد الأكبر بالنسبة لمترجمنا، هي مرحلة بناء الدولة الوطنية على مبادئ الإسلام والعروبة المعاصرة.

وقد لُقّب العلامة المرحوم؛ بإجماع الباحثين والدارسين الجزائريين بشيخ المؤرخين الجزائريين، و ذاكرة الجزائر، ورمزا من رموز الخبرة التراثية في البلاد العربية.

آثاره العلمية:

خلّف الشيخ المرحوم العديد من المؤلفات والمقالات العلمية، التي أثرى بها المكتبة الوطنية والعربية، نذكر من أبرزها:

- موسوعة تاريخ الجزائر الثقافي (10 مجلدات)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998.
- أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر (5 أجزاء)،دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993-1996-2004.

وثرواتهم لخدمة فرنسا، محاولا فصلهم عن انتمائهم العربي الإسلامي، فكان بحق استعمارا متميزا بشموليته وبقدر ما كان كذلك، كانت مجموعة من الجزائريين تعمل على نقل لغة المقاومة جيلا بعد جيل وتحرص على إبقاء شعلة الغضب والثورة متقدة في النفوس حتى قامت الثورة التحريرية التي أخرجته، ومن هؤلاء الذين قدموا تضحيات في سبيل ذلك الأستاذ أبو القاسم سعد الله ، الذي لم يطمئن لتلك الحالة المادية والمعنوية المتدهورة التي انتهى إليها أمر بلاده، فثار عليها إلى جانب ثلة من إخوانه مستلهما ثورته من مبادئ الإسلام وأسّسه كما فهمها السلف الصالح، لا كما شوهتها عصور التدهور والانحطاط، مؤمنا بأن تطهير العقيدة من الجمود والانحراف، وتنوير العقول بهدى الشريعة وعلوم الحياة وإنقاذ الأرواح من الهوة السحيقة التي انحدرت إليها، هي المنطلقات الصحيحة لإخراج الاستعمار من النفوس أولا ومن الأرض ثانيا.

ولم يكن هذا الإيمان حبيس نفس الأستاذ أبو القاسم سعد الله بل تجسد في نضاله المستميت ونكرانه للذات حتى بعد خروج الاحتلال من الجزائر، لأن طرده من الأرض لم يكن كافيا ،فالغاية المنشودة لا تتحقق إلاَّ بتطهير العقول والأرواح من رواسبه.

_ لعبت البيئة الريفية التي تربى فيها أبو القاسم سعد الله مدة سبعة عشر سنة دورا في الحفاظ على تمايزه وصفاء سريرته، بتحصينه بتعليم ديني أولي، وقد وجد في مدرسة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين -لاحقا- الإطار الذي ينمي قدراته ويحافظ على شخصيته الأصيلة.كما أن الريف الذي نشأ فيه، قوى فيه العزيمة والصبر على أنواع الابتلاءات والمحن التي ذاق مرها منذ نعومة أظافره وصدق من قال:" **من لم تكن له بداية محرقة لم تحصل له نهاية مشرقة** " .

وقد كان مؤرخ الأجيال يدرك أن الابتلاء هو سنة الله في خلقه، ولا يكون التمكين للمرفهين الذين لم يذوقوا محنة ولا خوفا ويظنون أن التمكين يأتيهم دون أن ينقص من دنياهم وراحتهم وأمنهم شيء، وينسون أن التمكين إنما يكون من بعد الخوف والمحن ،قال الله تعالى﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾سورة النور ، الآية رقم 55. فالشخصيات العظيمة– التي مكّن الله لها -كانت في بداية حياتها محرومة، مضطهدة وهذا سبيل المكافحين، ومنهم الأستاذ سعد الله، الذي توفاه الأجل رحمه الله في يوم 14 ديسمبر سنة 2013م بمدينة الجزائر العاصمة، وتحديدا بمستشفى عين النعجة العسكري - بعد معاناة من المرض- عن عمر ناهز 83 سنة.

يمكن القول في الأخير أن الأستاذ أبو القاسم سعد الله قد ساهم في إرساء معالم المدرسة التاريخية الجزائرية، ويكفيه فخرا ما قدّمه من أبحاث في تاريخ الجزائر، ساهم بها في إثراء المكتبة الوطنية والعربية.

لقد عاش شيخ المؤرخين الجزائريين الأستاذ أبو القاسم سعد الله - رحمة الله عليه- للعلم الذي استقاه من مدرسته الأولى، وهي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ثم أخذ ينشره كما عاش للإسلام ينصره وللعربية يحميها من كيد الكائدين وتنكر المتنكرين. فما وهن له عزم ولا ضعفت له إرادة ولا فت في عضده طغيان الأجنبي الدخيل ولا تثبيط المتخاذل الذليل، وهذا شأن أصحاب المبادئ الذين آمنوا بالحق فحالفوه وكفروا بالباطل فقاوموه.